

الجواری

نشأتهم - أثرهن في الغناء العربي

بقلم عبد المظیف المغربي

المدرس بمعهد التربية للبنات

لعلنا حين نعالج هذه الناحية المجهولة . ونسلك هذا الوادى الأفيح - نكون قد وفقنا الى أن نطالع قراء هذه الصحيفة بأزاهير ممتعة من الغناء والأدب . ونشرنا أمامهم صفحة عبقة ذات عبير ندى من الأخبار والملح التى طال احتجابها فى بطون الصحف . وأطلقنا إليهم صادحا من دوحة الفن العربى يهزم بنغماته المشجية ويقيد الأسماع بلحونه المطربة . واقتلينا لهم صورة باسمه تتراءى على قسماتها ألوان بهيجة تشع منها أنوار هذه العصور الماضية ، المحببة الى النفوس بما حوت من مجد وعظمة . ولمسنا منهم شفاف القلوب بما نشره من روائع هذا الميراث العربى الفاخر الذى اقتعد قمة الخلود . وتهادته الأزمان تحفة ثمينة حلت من الذكريات العذبة أسى منزلة .

فما شئ يسر النفس ويسبح بها فى عالم الأحلام والأمانى كنظرة عجلى تتخطى بها رقاب الأيام حتى تشرف على تراث الآباء والأجداد ، فتغمرها أحلام سارة ، وتشيع فى جوانبها هزة من الطرب والارتياح ؛ وعلى إثر هذه المقدمة اليسيرة نشرع فى بيان ما نقول :

نشأة الجوارى

كان مما أفاء الفتح الاسلامى على العرب كثرة الجوارى فقد نفذن إلى الساحة العربية واقتناهن العرب . وأقحموهن فى حياتهم فكان من عوامل بنائها

الاجتماعي . ونهضتها الحديثة . وسأيرت النساء العربيات في تكوين الأسر في الأوساط المختلفة . حتى لقد أصبح كثير من خلفاء بني أمية والجمهرة الساحقة من خلفاء بني العباس — من أولاد هؤلاء الجواری — ولما راجت سوقهن وكثر إقبال الناس عليهن ، وكانت الحياة العربية حياة لغة وأدب وفكاهة وسمير ، غنى النخاسون وموالي الجواری بإعدادهن لهذه الحياة على خير الوجوه وأكملها . فعملوهن الرواية والشعر والإجازة والمطارحة والغناء . وكلما نبغت الجارية في هذه الضروب غالى صاحبها بها في الثمن واشتط في التقدير — وسار الأمر على نظام التدرج والارتقاء في صدر الإسلام وعصر بني أمية حتى أظل الناس عصر بني العباس فطما السيل وعجت الحياة العربية بهن عجيجا . وإذا علمت أن السيدة زبيدة كان يُسمع لجواريا وهن يقرآن القرآن في قصرها مثل دوى النحل ، وأن بعض خلفاء بني العباس كان يحوى قصره بضعة آلاف من الجواری — استطعت أن ترى من كشب كثرة هؤلاء الجواری . هذا الى ما كان للسواد الأعظم من الأهلين من الجواری . حتى لقد كان للجواری النواهض منهن في عصور الإسلام المختلفة جوار مملوكات يصرفهن في خدمتهن ويساعدنهن في الغناء . ولا نريد في كلمتنا الموجزة هذه أن نعرض للناحية اللاهية من حياة الجواری فذلك ما لا يستسيغه القلم . ولا يرتاح اليه الخلق . ونأخذ في بيان أثرهن في الغناء .

تعتبر نشأة الغناء العربي حجازية لما امتاز الحجاز به في القرن الأول من الرخاء واليسر والفراغ من مهام الخلافة التي ألقت زمامها الى بني أمية ، فقادوها الى الشام ، واستقروا بها في دمشق تفاديا للأخطار ، وتباعدا عن سماع زئير القروم العربية الذين يناهضونهم بطلب الخلافة — ولما جبل عليه أهل الحجاز بفطرتهم من الرقة والظرف — ولكثرة المال الذى كان يرسله بنو أمية لسادة الحجاز وأعيانه ، يبتغون به رضاهم ، وعودهم عن الخلافة ، وشغلهم بزهرة الحياة الدنيا ولهوها — فلهذا كله أبلغ الأثر في إقبال الناس على شراء الجواری وعقد مجالس الغناء الذى نشأ بمكة والمدينة وليدا ، وشب على أيدي الجواری ينشئنه ويحسن القيام (٦ — صحيفة دار العلوم)

عليه ويغذيه بما يتسكن من ألوان جديدة . وكان منهم في الحجاز زعيمات رفعن لواء الفن في صدر الاسلام وانفردن بالزعامة : كجميلة مولاة بنى سليم التي كان منزلها بالحجاز أكبر مباءة فنية تنتظم رواد الفن وأعلامه . ولييان منزلتها الفنية نسوق اليك الحديث الآتى : وفد من مغنى مكة جماعة من زعماء مغنيها وهم ابن سريج والغريص وسعيد بن مسجح ومسلم بن محرز — فالتقوا بمعبد وابن عائشة من زعماء مغنى المدينة ، فدار الحديث بينهم حول الغناء وما ألفوا فيه من الأصوات وفي آخر الأمر احتكم هذا الجمع الى جميلة فسمعت أصواتهم جميعا . وأنزلت كل واحد في المنزلة اللائقة به — فلم يعارضها منهم أحد . ونزل هؤلاء الأعلام في الفن على حكمها والرضا به — وفي هذا ما يقتنعك بما كان لهذه الزعيمة من إجلال ورفعة في نفوسهم — ومن شهيرات الجوارى المغنيات في هذا العصر عزة الميلاء بالمدينة ، وتعد من المجددات في الغناء العربى ، فقد تلتق ألوانا من الغناء الفارسى وألقت عليها ألحانا عربية عجيبة ، فكانت أول من فتن أهل المدينة وحرض رجالهم ونساءهم عليه — وكانت خير من ورث غناء القيان القدامى أمثال سيرين وخولة والرباب وسلى ورائقة . وكان منزلها متتدى عاما يحضره الناس كأنما على رءوسهم الطير — ونكتفى في الدلالة على فضلها في عالم الغناء بقول علم من أعلامه وهو ابن سريج فقد قال حين سئل من أحسن الناس غناء « مولاة الأنصار المفضلة على كل من غنى وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء » .

والذى نريد أن نقوله ان مثل هذا النبوغ لا يكون وليد مصادفة ولا أثر سداجة . وإنما هو ثمرة تربية منظمة للفن في الحجاز لوجود الوسائل الصالحة له . وإذا كان الفن يتطلب دائما نصيرا له يستظل بظله . ويأوى الى ركنه — فقد ظفر في الحجاز في صدر الاسلام بأنصار يعد خيرهم فضلا وأصدقهم اخلاصا له السيد الأمل الظريف السخى الكريم عبد الله بن جعفر الذى سار كرمه مسار الغيث ينتظره الناس ليفرجوا كروهم ويقضوا به لباناتهم . ولعلك تشعر بهزة إعجاب وارتياح إلى هذا الرجل حين تسمع قول التاريخ الخالد فيه :

« كان أهل المدينة يدّانُون إلى أن يأتي عطاء عبد الله بن جعفر ، ولقد كان يحسن الاستماع ويرغب فيه ويزور زعمياته تشجيعاً له ونصور لك صورة من زيارته : دخل يوماً على جميلة المغنية في بيتها ورجال الأدب والفن في حضرتها يستمعون إليها وإلى جواريتها فأجلسته في صدر المجلس وجلس حوله أصحابه ؛ ثم أشارت إلى من حولها من عامة الناس فتفرقوا ؛ ثم أقبلت عليه وقالت : « ياسيدي وسيد آبائي وموالي كيف نشطت إلى أن تنقل قدمك إلى أمتك ! قال يا جميلة قد علمت ما آليت على نفسك ألا تغني أحداً إلا في منزلك وأحببت الاستماع ؛ قالت : جعلت فداك فأنا أصير اليك وأكفر ؛ قال لا أكلفك ذلك » ثم انظر إلى تعففه في السماع ونبوه عن لغو القول ، وهو في أصحابه القدوة الحسنة ، والمثل الصالح في الخلق والأدب كيف يطلب إليها في رفق وهوادة ولباقة وكياسة أن تغني شعراً عفيفاً فيقول : « وبلغني أنك تغنين بيتين لامرئ القيس تجيدين الغناء فيهما ، وكان الله أنقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت ، فغنت بهما وهما :

ولما رأت أن الشريعة ههما وأن البياض من فرائصها دامي

تيممت العين التي عند ضارج يضيء عليها الظل عر مضها طامي

فقال له بعض الحاضرين : كيف أنقذ الله بهما جماعة من المسلمين ؟ قال : أقبل قوم من اليمن يريدون النبي صلى الله عليه وسلم فاضلوا الطريق ومكثوا ثلاثاً لا يقدرّون على الماء حتى أشرفوا على الهلاك . فأقبل راكب على بعيره وأنشد بعض القوم البيتين فقال الراكب من يقول هذين البيتين ؟ قال امرؤ القيس ؛ قال والله ما كذب ، هذا ضارج عندهم . فحبوا على الركب فاذا مأم عذب عليه العرمض والظل يقي عليه فشرّبوا منه ؛ فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه ؛ فقال : ذلك رجل مذكور في الدنيا منسى في الآخرة خامل فيها ، يحى يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار .

ولقد كتبت جميلة في موقف آخر إلى السيد الجليل عبد الله بن جعفر كتاباً تستزيره فيه ، وأعدت له حفلة غناء بهيجة جمعت أسباب البهجة والكمال ليشرف

لفن به وينمو في كنفه . فكان هذا الكتاب درة ثمينة في عالم الأدب ، ولولا خوف الاطالة لسقنا هذا الكتاب مسرة للقارئين .

ومن الغريب أن يكون الحجاز في صدر الاسلام وعصر بني أمية مباءة الغناء العربي وحصنه — وأن دمشق حاضرة الخلافة لا تظفر بمثل هذا النبوغ ولا بمثل هذه الكثرة من المغنين المجيدين ، على ما فيها من أسباب القوة والعظمة ودواعي السرور والمتعة في قصور خلفاء بني أمية . ولهذا كانوا يستقدمون الكثير من مغني الحجاز ويشترون النابهات من جواريه المغنيات ليتصلوا بالفن الحجازي الرقيق الملائم لفطرتهم العربية الخالصة وليميز جوا أصوله بأصول الغناء الدمشقي على بعد ما بين الغنائين من فروق في الذوق والأصول .

وجاء العصر العباسي فكان حادثاً خطيراً أصاب فن الغناء في الحجاز في الصميم فذوى عوده ، وفتر صادحه ، وانتقلت نهضة الفن إلى العراق حيث بغداد عروس الدنيا ومطلع الين وملقى الآمال ومنبع الثراء — ولأن العباسيين كانوا قد لبوا داعي الغضب والنقمة على العرب فولوا وجوههم شطر الفرس وقبضوا أكف العطاء عن الحجاز وأهله لميله إلى العلويين — وداخل الفرس العرب مداخلة عظيمة وامتزجوا بهم امتزاجاً عظيماً كان له كبير الأثر في العلم والفن . فنهض الغناء نهضة عظيمة ونهضت أصوله وظهر فيه أعلام من بيت الخلافة العباسية ونبغاء من الفرس . ومجددون أنكروا على القدامى مذاهبهم في الفن ، كما أنكروا الشعراء المجددون على القداماء مذاهبهم في الشعر القديم في عالم الأدب .

ونبغت الجوارى في العصر العباسي في الغناء نبوغاً عظيماً وابتدعن فيه وألفن كبذل التي كانت تغني ثلاثين ألف صوت ، ولها كتاب في الأغاني يشتمل على اثني عشر ألف صوت وعريب التي تعد من أقدر المغنيات في هذا العصر على الغناء ولها فيه تأليف — ومن الحق الذي لا مرأ فيه أن نقول إن الغناء في هذا العصر قد وصل على أيدي الجوارى إلى أبعد غاية من التقدم والرقى . ترجى له . ومجالس الغناء في عصر الرشيد والواثق وأمثالهما من خلفاء بني العباس تعد من مفاخر

الدنيا وعجائب الفن التى لم تظفر بمثلها مدينة من المدينيات التى سائرت عصور العرب . والمطلع على وصف مجالس الغناء فى عصر كعصر الرشيد يدعش لتلك المقدرة الإنسانية الفائقة فى الفن ويخيل اليه أنه فى عالم ملىء بالأحلام التى تملأ النفس غبطة وانشراحا لاحد لهما .

رحمة الله على تلك العصور وما حوت من نبل وعظمة ومجد وعلم وفن — ووداعا لتلك الشخصيات العظيمة التى زهت بها الأيام وأضاءت بها الليالى وحسنت بها الدنيا . ولنا لنطوى آسفين هذا الحديث وسنطلع على القراء فى العدد الآتى إن شاء الله تعالى من هذا المطالع بحديث غيره فى الأدب وما للجوارى فيه من جولات وثمار

عبد المظيف المغربى

